القصص

نـــومان ...

— مكانكم !

لويت عنان فرسى نحو مصدر الصوت الآمر ، ولكن المثير الذى أثارته حوافر الشياه حال دون أن أرى شيئاً ، وصبرت قليلاً فلاح لى خلال ذرات التراب الحائرة أربعة أشباح قد اعترضت سبيل الماشية فحالت دون سيرها ، ولما همد الغبار تبينت فى الأربعة الأشباح أربعة رجال قد ضرب كل منهم لثامه على وجهه فلم يبن منه إلا عينان كعينى الصقر ، وتمنطق كل منهم بحزام من الرصاص لمعت ظروفه النحاسية تحت أشعة الشمس المائلة للمغيب ، وسدد كل منهم فوهة بندقيته الكامدة نحونا ، لا يتحرك ولا تطرف عينه

وانطلق الصوت الآمر مرة أخرى أجش :

— مكانكم قبل الهلاك ! ...

وأدرت رأسى ببطء نحو رفاق فى رحلتى ، وكانوا أربعة نفر من جنود الشرطة السورية ، فتبينت وجوهاً علاها الاضطراب ، ورؤوساً منكسة الأذقان ؛ ورأيتهم وكل قد خفض بصره فزعا ، يخالسون الأنظار ويسترقون الرؤية ؛ فكدت ، أنا موظف الحجز فى محكمة « الرقة » أتهمه فى الموقف العصيب من أمر هؤلاء النفر ، يتعدون هلعاً وفى كتف كل منهم بندقية كأنما علقت إشارة ناطقة على الجبن والخور

وساد صمت قصير لم يقطعه إلا حوافر الخيل تضرب الأرض ، وارتفع بعدها الصوت الأجش :

— هذا الطريق إلى « الخان » فدونكموه ... هيا !

سكت أصحابى ولكنى قلت مستفهماً :

— وهذه الماشية المحجوزة ؟

— هيا ... الماشية لنا ...

كان جواباً حاسماً ، ولكن رئيس الجنود جمع شتات شجاعته وصاح معترضاً :

— وكيف نتركها لكم ؟ هذا لن يكون

وقبل أن يلفظ الحرف الأخير دوى صوت الطلقة التى أطاحت قبعته ...

— هاه ! هيا سيروا ، ولا يلتفتن أحد وراءه ...

وكان أول من لكز حصانه رئيس الجنود وقد ملكه الذعر فأرسل العنان لفرسه لا يلوى على شىء ، وأرسلنا الأعنة لخيلنا ، نريد أن نبلغ « الخان » قبل المغيب

* * *

لاحت لنا بيوت الشعر من قرية الخان وبين الشمس وبين أن تغيب قليل ، وكانت خيولنا تسير ببطء وتثاقل ، كأنما تحس بما عليها من عار وخزى ، وكان الجنود صامتين لا ينبس أحدهم ببنت شفة ، فكأن الخوف والخجل تكاتفا على إظهارهم بمظهرهم هذا الذليل ؛ وسرت خلفهم منعزلاً عنهم أفكر فى هذه المهزلة التى أكرهنا على تمثيلها . فلما لاحت لى أطلال « الخان » العتيق تحيط بها بيوت الشعر عنت لى فكرة ، فعزمت على أمر

تلقانا مختار (١) القرية ، الذى كنت به وبأهل قريته عارفاً ، بخير ما يتلق المرء ، ولما ترجلت انتحيت به ناحية وقلت له :

— أريد نومان

فرفع إلى رأسه ثم ألقى على أصحابه الجنود نظرة أعادها إلى فى دهشة وتساؤل ، فتبسمت وقلت :

— لا تخش شيئاً ، لست أجهل أن نومان طريد الحكومة ولكنى أطلبه

فحرك كتفيه باستسلام وقال :

— كما تشاء

ومضى ، ولم تكن إلا برهة حتى عاد وأسر إلى : « هو منتظرك عند الجدار الغربى من الخان » ، فيممت المكان الذى

(١) مختار القرية السورية هو عمدتها للمصرى

ذكر ، فلاح لعيني فتى طويل القامة متين البناء ، ملق عباءته على رأسه ، ومرخ لثامه على وجهه ، وفوق منكبيه تنوس ضفيرتان بلون الليل على ثيابه البيضاء ، قد اقترن حاجباه فوق اللثام ، ولمع مقبض خنجره خلف الحزام ؛ ومذ رآني خف إلى مصافحتنا ، وبادرته :

— هيه يا نومان !

فأجابني صوت صافي النبرات رنان :

— يا لبيك ! ما وراءك ؟

فأخبرته الخبر وما سينجم عنه ، ثم قلت له :

— أنت وما ترى ، فلقد طرحت الأمر عن عاتق

فلمعت الابتسامة خلف اللثام الكثيف ، وقال بلهجة الحازم الواثق :

— لعينيك أبا خالد ، فسيبلغك خبري ...

وابتعد عني يتخطى الأطناب متغلغلاً بين البيوت ، وعاد بعد يسير ممتلئاً صهوة فرسه وقد تمنطق بحزامين من الرصاص وبندقيته في يده ، فلما بلغ موقفي لكز الجواد وجال على ظهره جولة ثم قذف بالبندقية في الهواء وتلقفها بأصابعه والجواد يعدو ، ثم هتف بي :

— إلى اللقاء ، فانتظرني

وأتبعته نظري وقد سار في الطريق الذي جئنا منه حتى حجبه عن عيني الغبار الثائر

* * *

تعددت الطلقات تمزق سكون الليل البهيم ، فانتبه رفاق بعد أن أخذ الكرى بمعاقد أجفانهم فهموا ، وأرجف من في مضيف المختار من رجال القرية أسماعهم إلى الأصوات برهة ، ثم انصرفوا إلى ما هم فيه من حديث ؛ أما المختار فقد نظر إلى نظرة المستفهم ، فأجبته بابتسامة الخبث وقد فهمت ما يريد ؛ فهز رأسه وتمتم بكلمات غير مفهومة . وكانت أصوات البنادق لا تزال تلمع حيناً بعد حين ، آناً متفرقة وطوراً متوالية متقاطعة ؛ وبعد هنيهة سكت كل شيء ، فوجب قلبي وتوجست خوفاً من هذا السكون ، وقد حدثتني النفس بمصاب نومان ، غير أني طردت أفكار السوء وخرجت من المضيف

كان ليل البادية زاهياً ، نجومه الوضيئة المنتثرة في نواحي السماء الزرقاء ، ونسيم أول الربيع البليل يعبث بأروقة البيوت وكواسرها ، وعواء الكلاب يتردد في أطراف المنازل تارة وينقطع أخرى ، ولاح لي « الخان » كشبح جبار أسود جاثم في الفلاة المترامية الأطراف ، فوضعته نصب عيني وأصخت بسمعي إلى الطبيعة الساكنة .

كم هي رهيبة هذه القناطر المقودة والأقواس المتتالية في ردهات « الخان » العتيق !

كم هي مهيبة هذه الأعمدة المتوازية التي تملأ أبهاءه مشققة السطوح مهشمة الرؤوس ! وهذه الجدران التي لم يذهب من حجارتها ، على كر القرون والعصور ، إلا ما أخذ أثافي للقدور وأركاناً للمواقد ! لقد جلت في قاعات هذا القصر القديم ونظرت خلال خروق السقوف من غرفة إلى الكواكب الزاهرة ، ثم رقيت الجدار وأرسلت بصري بجوب أنحاء البادية ، ولكن عيني لم تقع إلا على فلاة موحشة سوداء ونجوم تليها نجوم لا يبلغها حصر ، ويعيا عن عدها الفكر .

وانتابتني الهواجس مرة أخرى ، ولكن الغبار القاتم الذي ثار عند مدّ البصر قشع غيومها ؛ فقد ميز سمعي في هدأة الليل وقع حوافر الشياه على رمال الطريق فانجابت عني الشكوك وملأ قلبي الفرح وقد تبينت صوت نومان يحث الشياه على المسير .

ونبحت الكلاب هذا الفوج من الطارقين فأوقدت النيران وحمل كلّ قبساً ليتبين هذه الغيرة الغريبة ، فلما اقترب القادمون رأيت على ضوء المشاعل منظراً يملأ الصدور حبوراً ويثير العواطف والشعور : قطيع من الغنم يتلوه أربعة رجال مشمرو المآزر ملثمو الوجوه ، قد كتفت أيديهم من خلاف وعلقت بنادقهم في الأعناق ، يسوقهم سوق الماشية فتى متين الهيكل ، شديد الأسر ، ملطخ الثياب بالدماء القانية ، قد اعتلى صهوة جواد أشقر ، تنوس على كتفيه ذؤابتان طويلتان كلما حرك رأسه ابرد تحية محيّ

قفزت عن الجدار وعدوت أشق الجموع إلى نومان هاتفاً

— المذبَّةَ المذبَّةَ أبا صخر !

— ابشر اتاكُ الخير . . .

ومد ذراعيه فاعتنقته .

كان لهيب النار الموقدة في ساحة « الخانة الكبرى » يتلوى كرؤوس الثعابين فترقص له الظلال على الأقواس الرهيبة والأعمدة المرمرية الهائلة ، وكان نومان قائماً في وسط الساحة معتمداً على بندقيته ينظر إلى أسراه نظر الصقر إلى الفريسة ، كرمز للبطولة والنبل .